التراث الاستشراقي في مفهوم (العمارة الإسلامية)  
د. وليد أحمد السيد   
  
قارئ في العمارة العربية المعاصرة في مضمونها التراثي  
مدير مركز دراسات العمارة العربية والتراث بلندن  
sayedw03@yahoo.co.uk  
  
ارتبط الخطاب المعماري العربي المعاصر بالعديد من المصطلحات والمفاهيم التي شكلت وتشكل ابجدياته، حيث دأب المفكرون على استخدام العديد من المصطلحات التي باتت شائعة الاستعمال من جهة، ومن جهة اخرى فقد نحا هذا الاستعمال منحى تطبيقيا اذ انعكس على الفكر المعماري. تلكم المفاهيم التي دارت في فلك هذا الخطاب غدت من المسلمات بحيث تعدت حدود التفكير والبحث فيها اذ اعتبرت ضمنا من اسس وابجديات ذلك الخطاب وقلما تم البحث فيها او على الاقل البحث في اصول منشئها او تاريخ مولدها. وأبرز هذه المفاهيم وأكثرها صلة بالخطاب المعماري الفكري المعاصر، هو مصطلح شائع متداول نطلقه لوصف العمارة العربية التي سادت منذ منتصف القرن السابع الميلادي وحتى اواخر القرن التاسع عشر في الرقعة الشاسعة الممتدة من الهند وتخوم الصين شرقا، الى المغرب وجنوب اسبانيا غربا، ويشمل اقطارا متعددة عربية منها واسلامية، هذا المصطلح هو مصطلح (العمارة الإسلامية). فما هو معنى هذا المصطلح؟ وما هي ابعاد استخدامه ودلالاته؟ وما هي اصل نشأته؟  
  
لعلنا نبدأ بالقول انه قلما يخلو كتاب من كتب العمارة التي تصف عمارة العالم العربي قديما وحديثا من هذا المصطلح، حتى بات هذا الاستخدام غالبا على بعض الاستخدامات النادرة التي استخدمها الرحالة والمستشرقون لوصف العمارة التي شاهدوها اثناء تجوالهم وتوثيقهم لما شاهدوا. فقد نزع بعض الرحالة والمستشرقون الى إطلاق لفظة (العمارة المحمدية) نسبة الى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). ومن هنا فقد نشأت فكرة (نسبة العمارة) والذي يرمز اليه الاصطلاحان (العمارة الإسلامية) و (العمارة المحمدية) وبما تتضمنه قواعد اللغة العربية واصول الخطاب الفكري العربي. فحين تنسب شيئاً معينا إلى ماهية او شخص ما فإن ذلك يعني ضمنا احتواء الشيئ المنسوب على بعض أو كل خصائص المنسوب اليه. وبكلمات أخرى فحين نقول (عمارة اسلامية) فإن ما يتبادر الى الذهن على الفور ما يعنيه المصطلح بالتحديد وهو (العمارة التي تعكس الإسلام بشكل أو بآخر، او تلك التي تنطلق من جوهر الإسلام وتعاليمه) وينصرف الذهن فورا الى نوع من المثالية التي تتضمنها فكرة الدين والإسلام، فهل كان ذلك كذلك؟ وهل عكست العمارة المعنية مكانا وزمانا روح الإسلام وتعاليمه أو بعضا منها؟ أو هل كان الباعث لهذه العمارة ونشأتها هو الإسلام كدين؟   
  
الاجابة المباشرة البسيطة هي النفي. ولعلنا نستعرض بعض الحقائق والامثلة التالية التي تدعم هذه الاجابة، اذ أن المتتبع لأسس نشأة مفاهيم ومبادئ هذه العمارة جوهرا وناتجا من خلال تاريخها الطويل لا يمكن ان يخطئ ما تتضمنه من الحقائق التالية التي اثارت زوبعة من الجدل والنقاش بين اوساط المفكرين سواء من العرب او من قبل المشككين او الباحثين من الغرب. ولعلنا نستعرض ابرز الامثلة المعمارية لنستنبط بعض هذه الحقائق وهي: أولا، ان العمارة التي نشاهدها اليوم ونعجب بها هي عمارة (صرحية)، بمعنى انها تعكس رمزية فردية وترفا استثنائيا ولا تعكس اطلاقا السمة الغالبة لسواد الأمة, إذ كيف يمكن لنا أن ننسب (تاج محل) بأجرا بالهند للعمارة الإسلامية؟ وبخاصة إذا علمنا أن هذا الصرح قد انشئ كضريح او (قبر) لتخليد ذكرى محبوبة في بلاد لا يجد عامة الناس هناك ما تأكل او تلبس مع ما يعكسه ذلك الصرح من افراط في الانفاق والزخرفة والتشييد؟ فهل يمكن ان يكون الباعث لانشاء هذا الصرح هو دين الإسلام؟ وفضلا عن ذلك فهناك مثل آخر في العمارة الإسلامية هو مسجد ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة. فكيف يمكن نسبة (مدرسة ومسجد السلطان حسن) لروح الإسلام وتعاليمه اذ يروي المؤرخ المسلم المقريزي أن هذا البناء الهائل قد استنفد خزانة الدولة المسلمة آنذاك لسبع سنوات متواصلة بمعدل انفاق يومي وصل أربعين الف درهم؟ وإذا علمنا ايضا ان الغاية من انشاء هذا البناء الضخم الذي يبدو مضخما من حيث النسب والتناسب، اذ يشعر الزائر بالضآلة امام واجهته الهائلة كانت لانشاء قلعة حربية تقف امام القلعة التي تقابله ايام الحروب بين المماليك، وهي ما يفسر ضخامة المسجد غير العادية لانشاء المنجنيق، وحيث تهدمت منارة المسجد اكثر من مرة على رقاب الجالسين تحتها من مصلين وقاعدين. فهل يمكن ان تعكس هذه البواعث والاسباب بعضا او كلا منها تعاليم الإسلام وجوهره؟ ولعل اكثر المباني اثارة للجدل هو (قصير عمرة) بالازرق بالاردن، بما يحويه هذا المنتجع الصيفي الصحراوي, الذي انشئ لأحد امراء الامويين, من صور عارية مرسومة بالفسيفساء على سقوفه وجدران حماماته الداخلية، مما حدا بالمؤرخين الغربيين للعمارة الإسلامية امثال (اولج غرابار) من جامعة (هارفارد) لدراسة هذا المبنى بالتفصيل في كتابه الذي حمل ذات الاسم، ودعاه للبحث والتساؤل حول ماهية وكينونة الفن الإسلامي, واثار تساؤلات حول وجود التماثيل التي تتوسط قاعة الاسود بقصر الحمراء بالاندلس. هذه الامثلة وكثير غيرها مما تزخر به العمارة العربية خلال حقبة طويلة من الزمن تتضمن العديد من التناقضات التي لا تنسجم مع روح الإسلام او تعاليمه التي جاء بها الرسول محمد(صلى الله عليه وسلم). ويندرج تحت هذه الامثلة الصرحية قصور المترفين من الامويين بغرناطة بالاندلس، او القصور العديدة المنتشرة بالقاهرة والتي انشأها كبار الاثرياء من التجار والامراء والسلاطين. فهل العمارة (الإسلامية جدلا) هي عمارة بذخ وصنمية وتعكس الاقلية المترفة من الامة تاركة الاغلبية الغالبة تعيش على هامش الفقر والتاريخ؟ اذ ان كتب تاريخ العمارة (الإسلامية جدلا) تخلو من اي وصف او توثيق لعمارة عامة الناس، مما يعني انها كانت بسيطة وبنيت من مواد اقل ديمومة لتؤدي وظيفة الايواء لفترة عمر قصيرة، فهل يشجع الإسلام على الخلود في الارض ام انه حث على العمل والاستعداد لدار اخرى او الانصراف لامور اخرى من علم ودين؟ الواضح ان جميع هذه الامثلة المعمارية لم تبن خلال فترة الإسلام الاولى (ايام الرسول او الخلفاء الراشدين) وانما بنيت ايام الترف والانصراف الى الملذات والدنيا مما قوض دعائم الامبراطورية الإسلامية .  
وإذن، فإذا كان ذلك كذلك، وكان مفهوم (العمارة الإسلامية) استشراقيا، بمعنى انه اختراع استشراقي اطلقه الرحالة والمستشرقون على عمارتنا وتبناه مفكرونا وباحثونا دونما تمحيص، فما هو البديل لهذا المفهوم، وكيف ينبغي ان نفهم هذه العمارة وأن نسميها؟ احد البدائل الاخف وطأة والتي يتداولها البعض هما مصطلحان: أولهما أن نقول (عمارة المسلمين) وهذا بالتالي ينفي المثالية الذي يتضمنها مصطلح (العمارة الإسلامية)، او (العمارة المحمدية) بنسبتها الى رسول الإسلام. بمعنى ان الناتج من العمارة حينئذ يخضع للاخذ والرد وينسب الى خطل البشر لا الى جوهر الدين وتعاليمه. الثاني، وهو ما يتداوله المفكرون من الاكاديميين في الاوساط المعمارية، وهو ان نقول (العمارة في مضمونها الإسلامي)، وهذا يؤدي ذات الغرض السابق.   
وقد يتساءل احد القراء الكرام لهذا المقال فيقول: وما الداعي لهذه الجلبة والضوضاء والزوبعة من المقدمات بعمارة الإسلام او المسلمين الى آخر ذلك من النقاشات التي لا تعدو كونها حبيسة الكتب ولا تتجاوز حدود قاعات الدرس والمحاضرات والندوات؟ ولم نبحث في هذه الكلمات ومن اين نشأت؟ ولعلنا نجيب: مهلا فإن ذلك قد تجاوز حدود الصفحات المكتوبة، ولم يؤثر فقط في الفكر والخطاب الفكري والمعماري المعاصرين وإنما شمل ايضا البيئة المبنية وقواعدها ونظمها، إذ ان مصطلح (العمارة الإسلامية) بما يتضمنه من نسبة العمارة للاسلام كدين، قد قاد إلى الاعتقاد بضرورة وحدة العمارة التي تنبع من الإسلام بغض النظر عن المكان او الزمان، انطلاقا من وحدوية الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهي فكرة جل خطيرة في اصول العمارة ومبادئها، إذ تلغي فكرة الاقليم المصغر والعوامل المحلية، وتقود الى فكرة (العالمية) وتمهد لتسلل الانظمة المعمارية الدخيلة من الاقاليم المجاورة، وفوق ذلك كله تتضمن سيطرة التشريع (الذي يعلو العقل في بعض جوانبه) على قوانين البيئة المبنية الفيزيائية الحسية. ومن هنا تنشأ قناعات ومفاهيم صورية حرفية لدى المعماريين المعاصرين، بحيث ينزع البعض ممن يعجز عن إدراك الآلية التي تم بها افراز الموروث المعماري من الفترات السابقة الى التقليد الأعمى الحرفي بغض النظر عن المكان أو الزمان تحت غطاء أن العمارة الإسلامية واحدة على طول أرجاء العالم العربي الممتد، مما يجيز استخدام مفرداتها بغض النظر عن عوامل نشأتها أو ملائمتها، ومن هنا فإن ما حدث بالضبط في العالم العربي حديثا، أنه نتيجة للتداخل الثقافي مع الغرب، وضمن حالة الضعف الحضاري التي تنتاب العالم العربي فقد كانت (العمارة الإسلامية) بمفرداتها و(كناتج) لا (كآلية) هي النموذج للاحتماء، وأصبحت هناك دلالات سطحية لفهم وقراءة العمارة (الإسلامية)، إذ اضحى (القوس) احد دلالات العمارة الإسلامية، أو إذا احتوى المبنى على (فناء داخلي) فإنه يعد إسلاميا، وكأن الرومان أو اليونان أو الشعوب القديمة و الحديثة لم تعرف (الفناء الداخلي) بل عرفه العرب والمسلمون وحدهم؟؟ وهناك من هم اكثر سطحية باعتقادهم ان المبنى الذي تحتوي واجهاته - بالاضافة الى الاقواس والمشربية- على لونين من الحجر بشكل متتال بما يسمى (الابلق) هو ما يعكس (العمارة الإسلامية) وعلى هذا فإن معظم مباني العواصم الاوروبية كلندن مثلا والتي تزخر (بالابلق) إبان عصر النهضة أو العصر الحديث هي (إسلامية) من وجهة نظر هؤلاء؟؟؟ فيما يلجأ البعض من المعماريين للنقل الحرفي لبعض اجزاء المباني التراثية، مما يعني التقوقع ضمن التراث، أو هي القراءة التراثية للعصر. هذا جانب من الأزمة التي كرسها المفهوم الاستشراقي لمصطلح (العمارة الإسلامية).  
  
فماذا نقول اذن اذا اردنا ان نصف العمارة العربية في القاهرة او القدس؟ يرد المعماري والمخطط التركي (دوجان كوبان) على هذا التساؤل (وهو من ابرز الداحضين لفكرة عمارة اسلامية) باننا ينبغي ان ننسب العمارة بدلالة الزمان والمكان، وهكذا نقول: (العمارة في الفترة المملوكية او العثمانية في القاهرة)، او (العمارة في الفترة الاموية في دمشق)، وهذه العبارات الطويلة هي السبب الرئيس بالضبط الذي حدا بالرحالة والمستشرقين الى التعميم واطلاق لفظة (العمارة الإسلامية) او (العمارة المحمدية)، بينما انقاد الكثيرون من المفكرين والباحثين العرب المعاصرين الى ما انقادوا اليه، وتكرست فكرة عولمة العمارة العربية، ونحا ذلك بالعديد من المعماريين العرب المعاصرين الى رؤية التراث والعمارة الموروثة من الماضي برؤية استشراقية، بالصورة التي نقلها الاستشراق بآليات انتاج المعرفة وضمن اطره الفكرية الغربية ومن خلال الاطار المعرفي الذي تشكل من خلاله وشكل احداثيات فكره كأداة وكمحتوى.